مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة

العدد الخامس

1988م.

- المعارف اللازمة للداعية
- المحاولات الإستعمارية لتقويض الإسلام في الجزائر
- منهج الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في إصلاح التعليم الإسلامي
- الفكر التربوي بين الأصالة والتغريب
- جامعة الزهراء جامعة علمية يخسرها العالم الإسلامي

HISTORY

A GUIDE TO ADVANCED STUDY

BY

L.G. BRANDON

فصول مختارة من كتاب

التاريخ

مرشد لدراسة متقدمة

بقلم: ل.ج براندون

الصديق بشير نصر

مقـدمة المتـرجـم

تعاني المكتبة العربية في عصرنا هذا من فقرٍ ملحوظ في موضوع مناهج البحث التاريخي أو علم التاريخ Historiography وندرة المؤلفات فيها سواء أكانت مكتوبة بالعربية أم مترجمة عن لغة أخرى في الوقت الذي يُعَدُّ فيه المسلمون بحق مؤسسي أصول مناهج البحث التاريخي بدءاً من علماء الحديث الذين عنوا بضبط الروايات الحديثية عناية فائقة أذهلت الجميع وانتهاءاً بابن خلدون صاحب المقدمة الشهيرة الّذي ضمّنها الكثير من الضوابط العلمية لنقد الأخبار التاريخية، والكافيجي صاحب (المختصر في علم التاريخ)، والحافظ السخاوي المحدّث والمؤرخ الشهير صاحب (الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ).

وأمّا في قرننا هذا فالمؤلفات العربية في منهج البحث التاريخي فقليلة نذكر منها كتاب (منهج البحث التاريخي) للأستاذ حسن عثمان، و(المدخل إلى التاريخ) للأستاذ نور الدين الحاطوم، و(علم التاريخ عند العرب) للأستاذ محمد عبد الغني حسن و(بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب) للأستاذ عبد العزيز الدوري و(التاريخ والمؤرخون العرب) للأستاذ عبد العزيز سالم و(نشأة التدوين التاريخي عند العرب) للأستاذ حسين نصّار و(منهج النقد التاريخي الإسلامي) للأستاذ عثمان موافي، و(التاريخ العربي والمؤرخون) للأستاذ شاكر مصطفى و(مصطلح التاريخ) للأستاذ أسد رستم، وهذا الأخير من أحسن ما كتب بالعربية في منهج البحث التاريخي.

ومن هذه المؤلفات دراسات خصصها مؤلفوها لدراسة مؤرخين بعينهم مثل (موارد الخطيب البغدادي) للأستاذ أكرم ضياء العمري، وبحث (موارد تاريخ الطبري) للأستاذ جواد علي و(ابن الأثير الجزري المؤرخ) للأستاذ عبد القادر طليمات و(الطبري) للأستاذ أحمد الحوفي و(الخطيب البغدادي) للأستاذ يوسف العش.

وأمّا ما نقل إلى العربية من لغاتٍ أخرى في هذا الموضوع فقليل جداً لا يكاد يذكر، ويحضرني فقط كتاب (علم التاريخ عند المسلمين) للأستاذ فرانز روزنثال وكتاب (دراسات في المؤرخين العرب) لمرجوليوت، وكتاب (المغازي

الأولى ومؤلفوها) لهوروفيتس، وهذه كتب في تاريخ العرب خاصة، أمّا في منهج النقد التاريخي بشكلٍ عام فلا أذكر أكثر من كتاب (المدخل إلى الدراسات التاريخية) للفرنسيين لأنجلوا وسينوبوس.

وأمّا ما يتعلق بفلسفة التاريخ فهذا ما لا شأن لنا به هنا.

لذلك رأينا ترجمة بعض الفصول من كتاب (التاريخ.. مرشد لدراسة متقدمة) للأستاذ ل.ج. براندون، ونشرها في هذه المجلة.

وهذا الكتاب الصغير الحجم والذي لا يتجاوز المائة صفحة من القطع الصغير ملىء بالفوائد العلمية التي قد لا يجدها القارىء في كثير من المطوّلات مع ما تتسم به مباحثه من تركيز وتكثيف شديدين ينمّان عن غزارة اطّلاع مؤلفه.

وقد لا أراني مبالغاً إذا قلت إنه يجدر بطلبة الدراسات التاريخية النظر في هذا الكتاب للانتفاع بما يحوي من عرضٍ موجز دقيق لأخطر المباحث المتعلّقة بمنهج البحث التاريخي في دراساتهم للتاريخ العام والخاص معاً.

ويتضمن الكتاب في آخره مجموعة من الاختبارات التاريخية لقياس مقدرة الطالب الذهنية على تحليل الأخبار ومعرفة مواطن المبالغة والتحامل فيها، وقبول الصحيح منها ونبذ الزائف المختلق.

وإذا تبين هذا للقارىء الكريم فإنه لن يعجب من نشر مثل هذه الفصول في مجلة تعنى بالدراسات الاسلامية.

ومما يدعونا إلى نشرها أيضاً أن دراسة مناهج البحث العلمي من الموضوعات المقررة لطلبة الدراسات العليا بكلية الدعوة. ونحن نرجو بهذا أن نكون قد قدّمنا لاخواننا الطلبة مرجعاً جديداً يتصل بمنهج البحث التاريخي فينتفعون به.

وأخيراً، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لنشر بقية فصوله في أعداد مقبلة.

المقـــدمة

نحن نقرأ التاريخ لأننا نهتم بالناس، ولأننا نتشوق للقصة الجيّدة، فكلما كانت القصة مثيرة وغير عادية فإنه لا يصعب علينا تذكرها، وإننا نحسّ بامتعاض شديد نحو الحياة الماضية عندما نخبر بأن ثمة شاهداً صغيراً على أن «آلفرِد» أحرق الكعك، أو أن «درك» قال: «يوجد وقت لإنهاء اللعب وأما التغلب على الأسبان ففيما بعد».

ومنذ وقت مبكرّ وكتب التاريخ المدرسية تكتب خصيصاً لغرض وصف الشواهد والناس في شكل واضح مبسط وليس من الهيّن في هذه المرحلة أن نسأل ما إذا كانت تلك الأوصاف دقيقة. غير أن هذا السؤال يصبح ذا أهمية متزايدة في الحياة المقبلة.

ولا يزال ما وراء التاريخ بيتاً مملوءاً بالكنوز، مشبعاً بالأقاصيص الأخّادة، غير أن هذا يتطلب مهارات المتحرى، ودراسة فائقة لكتابات المؤرخين المحترفين، وعملهم واضح للغاية غير أنه بسيط ونادر. والغرض هذا الكتاب هو اقتراح بعض الطرق التي من خلالها يمكن أن تكون هنالك دراسة جادة.

أ ـ الشاهد التاريخي HISTORICAL EVIDENCE

إنّ كل ما نعرفه عن الماضي أنه قد جمع إلى بعضه من الشاهد التاريخي الذي لا يزال موجوداً حتى يومنا هذا. وهذه الأدلة جميعها قد منحت مفاتيح دراسة الماضي.

فالمؤرخون وعلماء الآثار القديمة يستنبطون الاستدلالات من تلك المفاتيح، ويبيّنون ما اذا يمكن أن نتعلم منها.

ونادراً ما تنبىء تلك المفاتيح عن نفسها، فهي أحوج إلى تعليلات الخبراء، إذ عندما تُعَرّى أساسات مبنى روماني قد يرى السائح فقط الخنادق وكسّارة الحجر، في حين أن عالم الآثار قد يرسم الشكل المتصور للمبنى متكاملا والغرض الذي من أجله بني.

ويظهر الشاهد التاريخي في عديد من الأشكال المختلفة، وها هي بعض

أهم هذه الأشكال:

1ـ الأغراض المادية التي صنعها الإنسان وطورّها، وهذه تتضمن: الحقول، والحواجز، والطرق والأكواخ، والمنازل، وأسوار المدينة، والقلاع، والكنائس، وأحجار القبور، والأدوات، والملابس.

2ـ الوثائق المتعلقة بالمسائل القانونية، والوطنية، ومسائل العمل، والتي وجدت بالفعل لغرض عملي في الوقت الذي لم يكن هناك تفكير في أنها ستقرأ بلهفة من قبل المؤرخين، ومثال ذلك: العقود بين شركاء العمل، والأوراق القانونية الناقلة للملكية من شخص إلى آخر، واتفاقيات دفع الأجرة، وقوائم الملكية في ويلز، وحدود ضريبة الدخل أو مكوس الموت، وقوائم أسعار السلع المعروضة للبيع.

3ـ وثائق أكثر شخصية، مثل: الرسائل واليوميات المعدّة للأشياء الخاصة.

4ـ اليوميات والمذكرات التي أعدّها مؤلفوها للنشر.

5ـ قصص الأحداث التي يجد فيها الكتاب منفعة واهتماماً.

تلك بعض المصادر الأولية التي ينتزع منها المؤرخ مفاتيحه، وهو سيعمل بشكل عادي في مجال مقيّد بموضوعات محددة، وذلك في شيء من الدقة، لأنه يرى أن الواجب دراسة كلّ وثيقة معلوم وجودها وذات ارتباط بالموضوع.

وهو يدرك أن دراسته لن تكتمل إذا أعرض عن جزء من الشاهد، فهذا مؤلف كتاب (اللويد جورج الصغير) لم يؤذن له باستعمال الوثائق التي كانت ملكاً لأحد أفراد العائلة.

وجميع كتّاب التاريخ المحدثين تقف في وجوههم عقبة الرسائل الحكومية الرسمية حتى بعد الأحداث نفسها التي كانوا يهتمون بها.

فالبحث التاريخي هو دراسة المصادر الأولية.

وعندما تنشر نتائج البحث فإنه من الملائم جداً أن يسمى الكتاب دراسة MONOGRAPH لأنه يتعامل في الأساس مع نقطة واحدة عريضة. وإذا كان

الكتاب ذا قيمة علمية فإنه يصير مصدراً ثانوياً يرجع إليه المؤرخون في دراساتهم الخاصة.

والبحث العلمي عملية معقّدة تكره المؤرخين على أن يعوّلوا على بعض بشكل مكثف.

ب ـ التواريخ العامة GENERAL HISTORIES

والدراسات من النمط السادس SIXTH-FORM كثيرة الاستعمال للتواريخ العامة المكتوبة بتفصيل معتبر، والتي تغطي مظاهر كثيرة لفترة زمنية قصيرة مناسبة، ومثال ذلك: تاريخ اكسفورد لانجلترا الذي يمتد منذ عصر الرومان وحتى عام ١٩٤٥م في خمسة عشر جزءاً طبعت ما بين سنتي ١٩٣٤ ـ ١٩٦٥م والذي كتبه مؤرخون بارزون.

وكل كاتب يعتمد على بحوثه الخاصة لجزء من تاريخه العام، إلا أن غاية ما يسعى إليه مزج بحوث الآخرين في وحدة متكاملة ذات اقناع وقبول. كما تدل حواشيه على الدراسات التي اعتمد عليها.

وهذه التواريخ تلعب دوراً هاماً في الدارسة المتقدمة لتعاملها مع المظاهر المتعددة للخبر إلا أن احتمال اقتباس التواريخ العامة من المصادر الأولية بعيد، وبالمثل احتمال اهتمام التواريخ العامة بتفاصيل المجادلات بعيد أيضاً.

والناظر في التاريخ يغبط أولئك الناس الذين أكثر ذكرياتهم صور فوتوغرافية، وكذلك الناس الذين لهم قدرة فائقة على استيعاب حقبة طويلة من التاريخ العام. ونحن نشعر بأهمية هذا الأمر عندما تستلزم دراسة التاريخ إعادة رواية الأحداث.

وفي الواقع إن الأسئلة الموضوعة لاستنطاق تاريخ راقٍ غير محتمل غالباً أن تكون اسئلةً من أجل إخبار بسيط عن قصة.

وإلقاء نظرة سريعة على أي ورقة اختبار تبيّن أن الأسئلة تولّد القضايا بشكل عادي تقريباً. وهم يسألون:

- إلى أيّ مدى أثّر (ب) في (أ)؟
- إلى أيّ مدى سبّب (س) (ص)؟
- ناقش (أو علّق على) فكرة أن الحرب (ع) كانت في الأصل حرباً تجارية.

ويتوقع الممتحنون بشكل جلي أن المرشّحين للامتحان مستعدون لتقديم آرائهم والخوض في أية مناقشة على أساس معلومات يمكن تذكرها..

كما أنّ الممتحنين لا يهتمون في الأصل بالقيمة المجرّدة للحقائق التي أحضرها المرشحون إلى غرفة الامتحان، (وهو عبء سيتخلصون منه فيما بعد). وإنما اهتمامهم منصب على معرفة المدى الذي تفهمه المرشحون مما سمعوه أو قرأوه، مع معرفة الطريقة التي مكّنتهم من ذلك (ملاحظين ارتباط الناس بالأحداث)، ومعرفة براعتهم في استعمال المعلومات ذات الجودة الكبيرة كدليل يشهد لجملة تاريخية بالصحة أو البطلان.

أ ـ المعرفة والفهم

(أ) ـ القراءة الجادّة والاستيعاب

تستلزم دراستك التاريخية العديد من المحاضرات والمناقشات، ولكن أهم عامل في نجاح عملك هو مهارتك في قراءة الكتب. وثمة دراسات في المكتبة تعد مراجعتها من حين إلى آخر أمراً أساسياً. ولعله من المرجح أن يكون مرجعك اليومي هو التاريخ العام. فكيف يمكن استعماله؟.

ثمة عديد من الأجوبة الممكنة، ولكن هنالك بعض الاقتراحات الأولية:

1 ـ اختر باباً أو فصلاً يتعامل مع موضوع خاص، واقرأه بعناية وبسرعة لكي تكوّن صورة عامة لتسلسل الأحداث والأفكار.

2 ـ اقرأ الجزء نفسه مرة ثانية وببطء أكثر، وخذ ورقتين منفصلتين لتدوين بعض الملاحظات، ثم سجل على إحداها ملاحظات لأي أفكار أو كلمات لم تفهمها، أو أسماء لبعض الناس ممن لا تعرف عنهم إلا القليل. وسجّل على الورقة الثانية ملاحظات مختصرة حول تسلسل الأحداث أو أي تعابير ترى أنها ذات أهمية خاصة.

3 ـ من خلال الورقة الأولى التي دوّنت عليها ملاحظاتك ابدأ عملك بعناية مستعملاً فهرست كتابك أو أيّ مساعدة تراها مقبولة حتى تقف على المعلومات الضرورية.

الق نظرة خاصة على الخرائط الدالة باحثاً عن كل الأمكنة المذكورة في النص، فالخرائط الطبيعية ذات نفع خاص، إذ قد تعطي تفسيراً عن: لماذا ـ مثلاً ـ يتقدم جيش ما على طول طريق خاصة، أو لماذا كانت الحدود محل نزاع، أو لماذا أثارت منطقة محددة جشع الجيران.

انظر إلى الرسوم كلما أمكن.

4 ـ كون سؤال اختبار يتعلق بموضوعك ثم اجب عنه باختصار في شكل ملاحظة.

تلك الاقتراحات بنيت على أساس مبدئين مهمين: إنّ كل القراءات الجادّة تتطلب نشاطاً ذهنياً كبيراً ما أمكن ذلك، وأنّ كل المعلومات التي اكتسبت أخيراً ستستعمل بلا إبطاء لأجل أن تستوعب وتهضم.

ونحن نسعى من خلال تلك المناقشة والقراءة الجادة للتّمكن من فهم التعابير والأفكار التاريخية. كما نحتاج لمعرفة حول أي شيء يدور هذا التاريخ، وكيف جمعت المعلومات التاريخية، وكيف اختار المؤرخون شواهدهم وكيف كثفوا استنتاجاتهم.

وفي ما يلي من الأجزاء محاولة لتوضيح بعض العمليات المعقدة باعتبارها وسيلة لقراءة التاريخ وفهمه:

ببساطة قد توجد المعرفة بلا فهم: قد اعرف ماذا يريد أن يقول الكتاب.. اعيد قراءته واحقق الغرض المنشود، ولكن حتى الآن لا توجد طريقة تمسك بها معاني الكلمات.

استطيع أن أقرر أن لوثر أنكر العقيدة القائلة بتحول خبز القربان وخمره إلى جسد المسيح ودمه (Transub-stantiation) ولكنني إذا لم اقو على تفسير هذه العقيدة فإن معرفتي ستكون سطحية للغاية.

وقد ادعو توماس كروميل بـ (المدير الذي لا يعرف الأعياء)، ولكنني إذا لم استطع أن اكوّن صورة ذهنية لأنواع الأعمال التي كان يقوم بها يومياً، والطرق التي يعالجها بها، فإنني لا أعدو كوني ببغاء تكرر ما يقال لها دون فهم.

ولأن التاريخ يرتبط بالناس وليس بالعبارات الموجودة في كتب التاريخ، فغرضنا الأساسي إذن هو أن نكوّن صوراً ذهنية واضحة للناس في العمل، وحتى نحصل على الوقت والفرصة لدراسة المصادر الأولية بالتفصيل فإننا نتعهد بمحاولة توضيح تلك الصور بقراءة العبارات في التواريخ العامة والدراسات، وهذا يتطلب جهداً متأنياً ومستمراً.

وإليك هذه العبارات عن (اليزابيت) الأولى، وهي مأخوذة من كتب معروفة بجودتها:

أ ـ عاشت (اليزابيت) ببساطة، وعملت باجتهاد، وحكمت بلادها باقتصاد قوي.

ب ـ كانت ذات تفكير وعواطف باردة.

ج ـ كانت طبيعتها الداخلية مشبعة بالمكر والدهاء.

إذا كررت هذه العبارات في أي مقالة سيظهر أنك تعرف بعض الحقائق والأفكار عن اليزابيت. ولكن ما هو الشاهد الذي تمكنت من وضعه في العبارات؟ وإلى أي مدى ساعدتك تلك العبارات على تكوين صورة واضحة لأمرأة رائعة؟

وكل عبارة حول (اليزابيت) عامة في شكلها، إلّا أنها تغطّي العديد من الأحداث والمواقف المعروفة للكاتب أو المؤلف، وتدل على الانطباع العام الذي خلفته فيه، فمثلاً: (عاشت ببساطة) لعل القصد من هذه العبارة توصيل ذلك الانطباع العام الذي تولّد من الوصف التالي الذي جاء بشكل مباشر من شخص كان على صلة بـ (اليزابيت).

(أكلت قليلاً جداً، واختارت من الطعام ما ساغ أكله وسهل هضمه.. ونادراً ما كانت تشرب أكثر من ثلاث مرات على الوجبة الواحدة، وبنفس القدر كانت تحتسي الجعّة، وقلّما تعود إلى الشراب حتى وجبة العشاء وكانت أيضاً نادراً ما تشرب الخمر مخافة أن يفسد ذلك ملكاتها وقدراتها، وهي مغرمة بخمر

الأليكانت أكثر من أي نوع آخر).

ولعل هذا ما كان يدور في ذهن المؤرخ، وهو بالتأكيد لم يشر إلى مجموعاتها الضخمة من الثياب، ولكن عبارة (عاشت ببساطة) لا تفيدنا أكثر من أنها كانت بسيطة في بعض عاداتها بشكل غير مفصّل.

والمؤلف كان بحاجة إلى مدّة ليعطينا التفاصيل، ويجب علينا قبول عبارته هذه على عمومها، وهي بدورها تثير فينا حقيقة ذهنية وهي أنه يجب أن نبحث في مكان آخر عن المفاتيح التي ستساعدنا على تكوين صورة ذات معنى، وهذه الصورة الجديدة إما أن تؤكد خبره أو تنفيه.

والجملتان (ب)، (ج) عامّتان أيضاً ولا تفصيل فيهما يوحي بالأحداث والمواقف التي تدور في ذهن المؤلف وقد صيغتا في أسلوب مجازي، وهذا أمر له أخطاره التي سنبيّنها في ما بعد.

في الجمل الثلاث أظهر المؤرخون الاستنتاجات التي توصّلوا إليها بعد دراسة الشاهد دراسةً عميقة، وذكرنا لتلك الاستنتاجات دون البحث عن بعض شواهدها إظهارٌ للمعرفة نوعاً ما، ولكن دون فهم لها.

وإنه من السهل جداً بيان معرفة بالتاريخ، وذلك بربط الجمل والعبارات التي يمكن تذكرها من الكتب بعضها ببعض.

ولا يزال الشاهد التاريخي متناثراً بشكل واسع، والمؤرخون وَعَدوا بعرض أفكارهم حوله في شكل مختصر جداً ونتائج أسابيع من البحث يمكن أن تُخْتصر في جملٍ قليلة، وعملنا هو الاهتمام بذلك. وأن نكون أكثر مرونة في التعامل مع الجمل التي يراها المؤرخون نافعة جداً، وقد نستطيع عندئذ أن نكتشف كيف يكون الاستعمال المصيب لعباراتهم.

4 ـ ما هي المجازات الموجودة في العبارتين (ب) و(ج) في الصفحة (5)؟

5 ـ ما هو الشاهد (الدليل) الذي يؤكد العبارتين (ب) (ج) أو ينفيهما في المقتطفات التالية:

1 ـ جاء في كتاب (جولات اليزابيت) لجون نيكول (ترجمة للخطبة التي

ألقتها الملكة باللاتينية في جامعة كامبردج سنة 1564 م):

(وها أنتم ترون الآن أن الفرق بين التعليم الحقيقي والتربية ليس محفوضاً تماماً. وأنتم أنفسكم خير مثال على الأول. ومثال الثاني أنني جعلتكم بشكلٍ متهورٍ شهوداً.

وأحسب أنه آن الآوان لكي تتحرر أذانكم من أذى تلك الخطب الهمجية التي لا فصاحة فيها والتي ظلت آذانكم رهناً لها زمناً طويلاً).

عندئذٍ.. أصبح الجميع في ذهولٍ عجيب.. وهتفوا بصوت مرتفع: (فلتحيا الملكة)، فردت عليهم جلالتها من جانب آخر: (فلتصمت الملكة).

(ب) جاء في تعليق للسير جون هارينجتون، ابن اليزابيت بالمعمودية:

(عندما ابتسمت كانت الشمس مشرقة، وأراد كل واحدٍ أن يستلقي تحت أشعتها، وفجأة تلبدّت السماء بالسحب، وأرعدت، وتساوى أمر الجميع تحتها، ولم أجد مشهداً للفهم أفضل من أنها كانت تبتهل مع..).

(ج) جاء في مذكرات روبرت كاري، ايرل مونموت، الذي تزوج بدون إذن الملكة، وعاد في عام 1593 م بعد أن سلّم رسالةً إلى ملك سكوتلاندا:

(هرعت إلى البلاط مسرعاً... مُتَّسِخاً كما كنت، ودخلت بين الحاضرين حيث كان اللوردات والسيدات يرقصون، ولم تكن معهم الملكة. ذهب أبي ليعلمها بعودتي فأمرته بأن يستلم رسالتي الشفوية أو المكتوبة، فعاد منها لذلك الغرض، وطلبت منه أن يعذرني بسبب ما كان يجب علي قوله إما لفظاً أو كتابة، ويجب أن أنقد نفسي.. وبكثير من اللغط دعيت للدخول حيث تركت معها وحيداً.

كان اللقاء الأول عاصفاً وفظيعاً، فتجاوزته بالصمت. وبعد أن أشبعت رغبتها في الكلام عني وعن زوجتي، أخبرتها أنّها نفسها كانت سبب الخطأ في زواجي، وأنها لو تعهدتني بأقل رعاية ما كنت تركتها وغادرت البلاط، وأنها كانت السبب الرئيسي لتعاستي.

كنت جاثياً على ركبتي ولم أشأ النهوض حتى قبّلت يديها ونلت عفوها. ولم يثر اليزابيت عذري. وكما قد ترعرعنا كصديقين حميمين قبل أن نفترق).

(ج) بعض النماذج من الجمل التاريخية

هناك نماذج كثيرة، وكلّ جملة تاريخية تستلزم أن نسأل:

- كيف يمكن اختبار صحتها؟
- وهل هي من قبيل الجمل التي يمكن أن يقال عنها أنها صحيحة فعلاً؟
- أم هي محتملة الصحة؟
- أو يمكن فقط أن تكون صحيحة؟

تأمل هذه المقتطفات من كتاب هنري الثامن لمؤلفه ج. ج. سكارزبريك:

وفي عام 1536 م من شهر يناير، ماتت كاثرين CATHERINE OF ARAGON زوجة هنري الثامن ملك انجلترا[1]....

وفي صيف نفس العام كان هنري يحتفل بزواجه الثالث في جو موسيقي متواصل، حتى بلغت به السعادة إلى درجة الصخب[2]، وكانت أياماً دافئة أمضاها عند النهر في أبّهة عظيمة.

وفي اكتوبر كان هنالك تدمر واضطراب في المناطق الوسطى والشمال تفجرت في شكل عصيان.

بدأت تلك القلاقل في لينكولن شاير، تم في يورك شاير، ثم انتقلت إلى الأقاليم المجاورة حتى بلغت المناطق الشمالية الغربية، حيث اندلعت نيران سلسلة من التمردات[3]، سميت إجمالاً بحج الشكر، وهو اسم اقتصر على العصيان الذي حدث في يورك شاير والذي بدأ في حوالي الثامن من اكتوبر واتّخذ له من روبرت آسك زعيماً له.

تلك التمردات كانت معقدة للغاية، وكانت ثمة دوافع مختلفة للتمرد من منطقة إلى أخرى... وتقريباً، لمنع التعميم... إن الشمال الغربي على وجه

الخصوص كان يعاني من مظالم اقتصادية واجتماعية[4]، وكان هنالك في مكان آخر مشاكل ملكية الأرض، والمال، كما كان للسياسة المحلية دور في ذلك.. ولكن عندما قيل ذلك انتقدت التمردات في أسلوبها في النشرات والمجلات المدنية والمحلية، واستُغلت من قبل بعض المغامرين الذين اشتموا منها رائحة الفريسة السهلة، ومن قبل ضحايا المحاصرة، أو من قبل الملاك الجشعين إلى آخر هؤلاء.

ولعله لا يزال موضع جدل أن التمرد الذي حدث في لينكولن شاير وحدث الحج كانا في البداية، وفي المقام الأول احتجاجات على مسلك النظام القديم ضد التغيرات الدينية الأخيرة[5]...

وباختصاره، ليس سهلاً أن ندحض تأكيد آسك وإصراره المتكرر بأنه حتى إذا لم تطرأ عوامل أخرى فإن المظالم الدينية كافية لتوليد التمرد والعصيان...

وإنني أؤيد وجهة نظر البروفيسور نولز بأن الحج كان في البدء حدثاً دينياً[6]، وكلامه في هذا الموضوع طويل أكتفي منه بهذا على وجه الاختصار.

فالفقرات التي تحتها خط:

1 ـ جملة بسيطة من الواقع حول شخص واحد.

2 ـ جملة عن الحالة العاطفية لأحد الأشخاص.

3 ـ جملة تتعلق بأفعال عدد ضخم من الناس.

4 ـ جملة تبين الدوافع الرئيسية للتمرد في ساحة عريضة.

5 ـ جملة تشير إلى أنه ثمة مجال للمناقشة حول الدوافع الأساسية للمتمردين.

6 ـ جملة تعطي حكم المؤلف في هذا الموضوع.

كيف يمكن التأكد من صحة تلك الجمل؟

الجملتان (1) و(3) ليس ثمة صعوبة في التأكد من صحتهما، فالتقرير الذي قدّمه الشمّاع للذي قام بتحنيط جسد كاثرين لا يزال موجوداً. كما أنه توجد أدلة وافرة على حوادث التمرد.

وأما الجملة (2) فلم يقدم البروفيسور سكارزبريك دليلاً دقيقاً، ولعله قد

اعتمد على الانطباع الذي حمله الناس الذين وصفوا المهرجانات عن هنري. وهل هذا مقنع؟

الجملة (4) يمكن التحقق منها بواسطة بحث مكثف في كل ما من شأنه يتعلق بدوافع التمرد والعصيان في المقاطعة الشمالية الغربية. (مثل ذلك الدراسة التي قام بها م، هـ، ر. دودس والتي نشرت في سنة 1915).

والجملة (5) تجعل الأمر أكثر بساطة ويسراً وهو أنه ليس كل المؤرخين سيتّفقون حول الأهمية النسبية للدوافع المتابينة التي تُعْزَى للمتمردين.

والجملة (6) تعطي حكم المؤلف الخاص، وتشير بوضوح إلى أنها مجرد فكرة، وليست هي الواقع الذي يعلو فوق كل الشكوك.

ودراسة تلك المقاطع موضوعة لبيان:

(أ) أن الجمل الواقعية المتعلقة بالأفراد قد تكون أسهل من غيرها في البناء عليها. (بالرغم من أن هذا ليس كذلك دائماً، فإنه ليس من السهل أن تكون واثقاً من السنة التي ولد فيها توماس وولزي، أو فرنسيس دريك).

(ب) أن الجمل التي تدور حول أفعال المجموعات من الناس من الضروري أن تكون معقدة. فليس هنالك حج واحد كما أن التعبير عن تمرد واحد ليس صحيحاً.

(ج) وأن وصف أفكار وعواطف الأفراد أو الجماعات تتطلب كالعادة قليلاً من العمل التخميني. إنّنا قد نكون واثقين من فعل الناس، ولكننا لا نستطيع أبداً أن نكون واثقين تماماً من معرفة لماذا فعلوا ذلك.

(د) وأن المؤرخين يقدِّمون لنا وجهات النظر بالإضافة إلى الحقائق. ولعلَّه من الصواب أن يفعلوا ذلك لأن أحكامهم مبنية على الخبرة الواسعة، ولكن يجب أن نتعرَّف على التعابير التي تمثل وجهات النظرَ، وألاّ نخلط بينها وبين التعبير عن الحقائق، وسنتأمل فيما بعد ما إذا كانت معظم التعابير عن الأسباب - أي التعليل - يمكن أن ينظر إليها كوجهات نظر.

وإذا اعتبرنا هذا التحقيق جزئياً إلى حد ما، فقد نستطيع أن نقرر أنَّ هنالك

أنواعاً أخرى من الجمل أو التعابير التي يكتبها المؤرخون عادة، والتي يمكن أن تنظَّم في شكل أسلوب منطقي بعض الشيء، وأنَّ بعضاً منها يمكن أن يختبر بشكل صارم بينما الأخرى لا يمكن أن تتعدى كونها محض آراء، وأنّه كلّما بلغنا نهاية المطاف نبدو بعيدين جداً عن الناس الحقيقيين، والأحداث الفعلية التي بدأت العملية كلها.

وهذه هي العملية:

(أ) ـ وقوع الحدث ـ انفجار، زلزال، انعقاد البرلمان، اغتيال. ونحن واثقون منذ البداية بأننا لن نعرف كل شيء حول الحدث أبداً.

(ب) يقوم المراقبون بتقديم الوقائع كما يعلمونها أو كما يتذكرونها في شكلٍ شفهي أو في شكل تقارير مكتوبة.

(ج) يقوم المؤرخون بدراسة التقارير ومقارنتها، ثم صياغتها في جمل أو تعابير.

ومن ثم يجمع المؤرخون تلك العبارات أو الجمل مع غيرها من الجمل الأخرى التي يَوَدّون أن تكون حول جماهير الناس والأحداث.

وهم ـ أي المؤرخون ـ يكتبون في أعمالهم المطبوعة عن:

1 ـ أفعال الشخص الواحد: «في سنة 1908م، تقدم اسكويث ASQUITH رئيس الوزراء الإنجليزي بالميزانية شخصياً» (راجع في ذلك هانسارد HANSARD).

2 ـ دوافع الشخص الواحد ومواقفه: «ظن اسكويث أنه باعتباره رئيساً لمجلس الوزراء يجب أن يؤلف بين أعضائه بذوق رفيع، وأن يحسم خلافاتهم بحصافة، وهو لم يكن متعصِّباً للقضايا أو المثل العليا، وكان شغله الشاغل أن يدير حكومة الملك يوماً بعد يوم». (هذا كلامٌ عامٌّ جداً، ويمكن التأكد منه بدراسة مذكرات وزراء مجلسه ورسائلهم).

3 ـ أفعال الجماعة: «في الأيام الثلاثة الأخيرة هاجمت قوة كبيرة من اللوديت LUDDITES مسلحة بالبنادق والمسدسات والفؤوس والمطارق، وهشّموا سبعين

قلباً في محل لصنع الجوارب وحياكة الملابس والمنسوجات في ساتون بأشفيلد» (يمكن التأكد من ذلك بالرجوع إلى الصحف المحلية، ولكن تفاصيل ذلك يصعب اكتشافها، كعدد المسدسات مثلاً).

4 ـ دوافع الجماعة: «كانت وزارة جلادستون الأولى منكبّة على إلغاء الامتيازات والفرص الكبيرة».

(فهل طبّق هذا على جميع الوزراء، أم فقط على ذوي النفوذ الكبيرة، أم على أولئك الذين أحكموا قبضتهم على دوائرهم؟ رسائل الوزراء ومذكراتهم وحدها التي ستبين ذلك).

5 ـ مقارنات الناس: (عن كتاب كاستليريا وكانينج: «الفرق في إدارتهم للشؤون أملَتْه ظروف متغيرة، وليس نتيجة لاختلاف أساسيّ حول المبدأ». (الشاهد يجب أن يبحث في هذه الظروف المتغيّرة والمبادىء المعلنة. إلا أنّ هذا إظهار لرأي الكاتب، وهذا في حد ذاته يمكن أن يدعم أو أن يفنّد، ولكن لا يمكن البرهنة عليه).

6 ـ النزعات العامة عند الجمهور: «ما بين عامي 1640-1603 م أصبح الغني أكثر غِنىً وازداد الفقير فقراً» (تعبير مطلق جداً ليس له دلالة على كل جماعة، ومحاولة تأكيد ذلك من خلال معلومات إحصائية أمرٌ صعب للغاية).

7 ـ الأسباب التي تربط أفعال الأفراد بأفعال الجماعات: «ظهور الكارتيزم وسقوطه عَكَسَ التغيّرات في المناخ الاقتصادي» (ربط عام جداً للاحداث السياسية والاوضاع الاقتصادية لعدد كبير من الأفراد والجماعات، وقد يظهر هذا مقبولاً أو غير محتمل. إلا أن هذه الجملة ليست من الجمل التي يمكن أن يبرهن عليها بشكلٍ كلي).

8 ـ نتائج الأفعال أو الخطط: «العواقب الاقتصادية والاجتماعية لحل الأديرة مبالغ فيها». هنالك محاولات كثيرة لتقويم هذه العواقب، وثمة جزء معتبر من الشاهد لبعض الأجزاء من البلاد.

وعلى أية حال فإن الحكم في هذا المقام هو أن تظل هذه المسألة مسألة رأي.

9 ـ مقارنة النتائج (أو الأسباب) لجملة من الأحداث مع نتائج (أو أسباب) لجملة أخرى من الأحداث: «كان محرِّك السيارة أعظم عامل ساهم في تحويل الحياة الاجتماعية في بريطانيا خلال الفترة الواقعة ما بين 1906، 1939م».

(هنالك شواهد تتعلق بالآثار الاجتماعية لاختراع محرك السيارة، كما أنها تتعلّق أيضاً بمخترعات أخرى، ولكنها لا تتكافأ بشكل دقيق، فإحداها تقابل الأخرى).

10 ـ الأحكام على القدرات والمآثر للأفراد أو المجموعات: «لم ينجح موسوليني تماماً في حلّ مشاكل إيطاليا».

(كلّ تلك الأحكام هي مجرد آراء، فكلمة مأثرة تقتضي عموماً أن ما فُعِلَ كان جديراً بأن يُفْعَلَ، ولن يكون هنالك اتفاق حول أي الأفعال تنفع أو لا تنفع في الزيادة من الرفاهية العامة لبلدٍ ما).

11 ـ الحكم على الجانب الأخلاقي للأفعال: (نقلاً عن باترلو): «إثارة هلع الفرسان المتخلّفين في السباق، والمحاطين بحشد من الناس، بإصدار أصوات هي من مراتب البغض والضغينة». (مرة أخرى، هذا محض رأي ليس من الضروري أن يقبله المؤرخون الأخرون).

12 ـ الحكم على الآراء الأخلاقية للمؤرخين: «إني أُحذِّرك.. فليكن حكمك على الأخرين من خلال الرأي النهائي الذي يحكم حياتك الخاصة». (هذه الكلمات قالها اللورد اكتون، فقد ظن أن المقياس الأخلاقي لزمنه أفضل مقياس يجب أن يطبّق على كلّ الأشكال التاريخية للزمن المسيحي. لذلك إذا كانت القرصنة في أعالي البحار غير مقبولة اليوم، فإنها كذلك لم تكن مقبولة في أيام درك. لكنّ عدداً من المؤرخين يجادلون في وجوب الحكم على إنسان ما بمقاييس زمنه، والجدال مستمر).

13 ـ المبادىء العامة المتعلقة بالسلوك الإنساني: «تبدأ الثورات فقط عندما تأخذ الظروف في التحسن فعلاً».

(يمكن أن نجد الدليل أو الشاهد على تأييد هذا التعميم الشامل، ألا أنَّ عدداً من المؤرخين قد يجادلون في أن دراسة التاريخ لا تقود إلى صياغة المبادىء

التي تصلح لكل زمان ومكان).

14 ـ الآراء المعبر عنها كلياً بلغة مجردة: (انظر ص).

«كشفت حركة اللوديزم المحتوى السياسي الأعلى، وأكبر حدود العفوية والفوضى».

لعلنا ابتعدنا عن الصورة التي رسمناها في أذهاننا لتلك الجماعة المسلحة التي قامت بتحطيم الآلات المستخدمة في صناعة الجوارب ليلاً، إلا أننا لم نبتعد كثيراً عن العمليات الذهنية التي تتطلبها التساؤلات التاريخية الراقية.

ونصف المقاطع التي استشهدنا بها قبل قليل قد استعملت في بحوث حديثة، وهي تحتاج إلى فهم عميق قبل مناقشتها، والتعليق عليها في بحث أو دراسة، وهذا أمر يؤكد الحاجة إلى التدرّب على الدراسة النقدية. وقد افترضنا في موطن سابق (راجع ص 4) أن معظم القراءات الجادة هي ضرب من العمليات الفعّالة.

ونحن في هذا المقام ننصحك بأن تقرأ من حين إلى آخر صفحة أو صفحتين قراءة عميقة، باحثاً عن دور الناس وراء الملاحظات العامة، مقرراً أي نوع من الجمل استُخْدِم، وكيف يمكن اختبارها، والتعرف على آراء المؤلف.

وبشكل جلي، يمكننا القول بأن هذا يمكن أن يعدّ تمريناً يقتضيه المقام، إلا أنه ذو قيمة عظيمة.

6 ـ اقرأ المقطع التالي قراءة نقدية ثم قرر:

(أ) ما هي الجمل المستعملة في المقطع المتعلقة بواقعة معينة؟
(ب) كيف يمكن اختبارها أو التأكد منها؟
(ج) ما هي الجمل المستعملة في المواقف الذهنية؟
(د) ما هي الآراء التي ظهرت في المقطع؟

جاء في كتاب هنري الثامن لمؤلف (ج. ج. سكاريزبريك J.J. SCARISBRICK):

(لم يكن الملك يأمن كثيراً لولاء أصدقائه بقدر ما كان يأمن بولاء أعدائه.

فهذا روبرت آسك ROBERT ASKE لم يستغل ضعف أعدائه، وقد واتته الفرصة مراراً وتكراراً، بل كان يكبح جماح المتطرفين الهوج الذين أرادوا أن يسيروا صَوْبَ الجنوب لاحتلاله كما بدا لهم. وكان آسك يُصِرّ على أنه وأتباعه كانوا حُجّاجاً وليسوا متمردين، وأتوا للدفاع مع الملك ضد خصومه وليس للقضاء عليه. وكان آسك أكبر الموالين للملك، كما كان أكبر المنتقدين له والمذعنين له، وكانت استقامته وثقته بأن الملك سيصغي إلى شكواهم، كما كان موقناً بأن الملك لن يرجع عن كلمته، ولن يثأر لنفسه منهم بمعاقبتهم بشكل دموي الأمر الذي يبطل في الحقيقة الحج).

2 ـ لغة النقاش التاريخي

يقوم المؤرخون غالباً بجمع نتائج البحث العريض في تراكيب مختصرة، ويساعدهم في ذلك استخدامهم لكلمات وعبارات توصل المعاني في شكل مكثف. وتلك هي:

(أ) مصطلحات فنية ذات معان دقيقة.

(ب) مصطلحات عامة أقل دقة.

(ج) أسماء الجماعة، أسماء الفترات الزمنية، أسماء وضعت لوصف حركة معينة.

(أ) المصطلحات الفنية:

وهذه عرضة لأن توجد في كل صفحة، مثل:

ـ Freemen، وتعني الرجال الأحرار.

ـ Villeins، وهذه تطلق في النظام الاقطاعي على جماعة من الفلاحين نصف أحرار.

ـ Leaseholders، وهذه تطلق على المستأجرين.

ـ Copyholders، وهذه تطلق على معاون مصحح التجارب، يقرأ له النص بصوت عال. كما تطلق على معان أخرى.

ـ Enclosure، وتعني حظائر مسيجة أو مطوّقة. أو قطعة من دَيْر تخصص لراهب الجماعة.

ـ Petty session، وتعني اجتماع قاضيين من قضاة الصلح أو أكثر للنظر في الجرائم البسيطة بشكل سريع، دون هيئة للمحلفين.

ـ Assizes، وتعني الجلسات الدورية التي يعقدها في الأقاليم قضاة محكمة عليا.

ـ Rector، وتطلق على القسيس أو رئيس الجامعة.

ـ Deacon، وتطلق في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وفي الكنائس الإنجليزية على مرتبة دينية أقل من ال.

ـ Priest، وتعني قس أو كاهن.

ـ Advowson، حق التمثيل لرتبة كنسية.

ـ Regular Clergy، وتعني الأكليروس وهم رجال الدين.

ـ Legate، وتعني في الكاثوليكية الرومانية: كاهناً يعينه البابا ليمثله في مسائل مؤقتة ويمنحه كل صلاحياته. وتعني في التاريخ الروماني: الملازم الذي يصحب الجنرال، أو النائب الذي يصحب حاكم إقليم من أقاليم الإمبراطورية الرومانية.

ـ Province، وتعني مقاطعة أو إقليم. وهي تعني في التاريخ الروماني: إقليم خارج إيطاليا يحكمه حاكم روماني. ومن معانيها الكهنوتية: مساحة تقع تحت سيطرة كبير الأساقفة أو المطران. ومن معانيها: مهنة. كأن يقول أحدهم: إن النقد المسرحي ليس مهنتي.

ـ Convocation، وتعني مجمع كنسي إنجيلي، كما تعني الجمعية التشريعة لبعض الجامعات.

ويمكن معرفة المعاني الدقيقة لتلك المصطلحات الفنية باستخدام قاموس جيد، وبالرجوع إلى فهرست كتاب في التاريخ العام، وهنالك تحذيران مهمان

ينبغي عليك مراعاتها:

1 ـ احترس من استعمال المصطلحات التي لم تفهمها إلا فهماً جزئياً.

2 ـ احذر الكلمات الفنية التي قد تغيرت معانيها.

وهكذا، فإن لفظة (Deacon) في الكنيسة الإنجليكانية تتعلق بالأنظمة الدينية، كما يمكن أن تطلق على القسيس، في حين أن هذه اللفظة في الكنيسة المنشقة تعني أي شخصٍ عادي يقوم بواجبات يعتقد أنها تماثل تلك الواجبات التي يقوم بها الـ (Deacons) في الكنيسة المسيحية في عهودها الأولى.

(انظر رسالة بولس الأولى إلى تيموتي، فصل 2).

(ب) مصطلحات تاريخية عامة:

وهذه تسمية مع الأسماء والصفات والعبارات التي ترجع إلى المعلومات التاريخية، وهي في الأغلب غير معرّفة تماماً. ففي المقطع الذي مر بنا ص (8) كتب البروفيسور سكارزبرك عن مشاكل ملكية الأرض، ومشاكل المال (Land-lordism & Ficalism) ويحتمل أن يكون المقصود من هاتين الكلميتين إثارة تفكيرنا في أنواع متعددة ومختلفة من المظالم التي قد تظهر جشع ملاك الأراضي، ومطالب جباة الضرائب.

وحتى نتأكد من هذا فإننا نحتاج إلى اكتشاف ما إذا كانت الكلمات المستخدمة في موطن آخر في نص من النصوص ذات معان واضحة، ولكن لسوء الحظ لا يظهر لنا ذلك في فهرست كتاب هنري الثامن.

وثمة مصطلحات عامة كثيرة تستعمل بشكل ثابت في الكتابة التاريخية، مثل:

- Feudalism، النظام الإقطاعي.
- Capitalism، الرأسمالية.
- Imperialism، الاستعمار.
- Socialism، الاشتراكية.

- Communism، الشيوعية.

- Absolutism، الحكم النيوقراطي غير المقيد بقانون، وفي علم اللاهوت: المبدأ القائل بسيادة الرب المطلقة.

- Despotism، الاستبداد.

- Separatism، الانفصال.

- Hegemony، الهيمنة.

- Bureaucratic، بيروقراطي، مكتبي.

- Administration، الإدارة.

- Centralization، المركزية.

- Constitutional، دستوري.

- Totalitarian، استبدادي.

- Reactionary، رجعي.

- Englightened، مستنير.

- Democratic، ديمقراطي.

- Conservative، محافظ.

- Liberal، متحرر.

- Radical، متطرف.

معظم تلك الكلمات عبارة عن معان مجردة لا ترى ولا تحس.

فيمكننا أن نتصور هنري الخامس وهو يأمر بإعدام آن بولين (Anne Boleyn) فندعوه بالمستبّد، وأن الأفعال المماثلة لذلك هي ضروب من الاستبداد. فالاستبداد اصطلاح عام مجرد، يكسو عدداً من الأفعال المختلفة. فنحن لا نرى الاستبداد، ولكننا عندما نقرأ الكلمة يمكننا تكوين صورة ذهنية لأنواع من الأفعال

والمواقف التي كانت تدور في خلد المؤلف، وهي في الوقت نفسه خطيرة إذا رَدّدناها فقط ككلمات دون أن نكوِّن لها صوراً ذهنية.

وفي ما يلي جملتان، قد تثيران انطباعاً مؤثراً، وهما مجموعة من الاصطلاحات العامة المجرّدة جمعت إلى بعضها البعض:

1 ـ (في القرن السادس عشر، لعب النظام الاقطاعي دوراً في تنظيم الحياة الإنجليزية، وكانت هنالك إشارات تنبىء بأن اقتصاداً رأسمالياً قد ظهر، وأن مركزية الإدارة المتزايدة قللّت تدريجياً من شأن الشخصيات الإقطاعية). هذه الجملة مجموعة من العبارات الميتّة، ولا يمكن الاكتفاء بضرب الأمثلة عليها لبعث الحياة فيها.

2 ـ (لم يكن الاتحاد بين الكنيسة والمسيحية حالة أبدية ومحتومةً، ولم تنشأ بالضرورة من المتطلبات العامة والخاصة للكنيسة، بل أبعد من ذلك، فقد كانت نتيجة لظروف تاريخية معيّنة ومؤقتة، وهي ظروف منفعية، ولم تكن المنفعة دينية فحسب، بل عقلية، وسياسية، وإدارية كذلك). (قد يبدو لك أن هذا المقطع المختلق فيه مبالغة، ولكن اعتبره مقطعاً صحيحاً من كتاب مهم).

7 ـ إشرح المقصود من العبارة التالية دون استخدام لفظتي «السياسة» و «التعصب»:

(كانت السياسة الخارجية لاليزابيت الأولى كسياستها الداخلية، خاليةً تماماً من التعصب).

8 ـ الجمل التالية تدور حول الإمبراطور تشارلز الخامس:

(لمّا خَلَفَ تشارلز الخامس إياه ليكون دوق بورجندي (Duke of Burgundy) في عام 1506 م، أصبح حاكماً مطلقاً إقطاعياً على... المدن الغنية مثل (Bruges) و (Ghent) اللتين كانتا تتمتعان بتاريخ طويل من الحرية الدستورية... تشارلز... حاول أن يضم الإقليمين معاً تحت إدارة أكثر مركزية، ولكنه لم يقو على التغلب على روح الانفصال فيهما ذات الجذور العميقة).

(أ) ما هي أنواع الامتيازات التي كان يتمتع بها مواطنو (بروجس وجنت) في حياتهم اليومية باعتبارها جزءاً مهم من حريتهم الدستورية؟

(ب) ما هي أنواع الخسارة التي ستلحق بهم إذا أصبحت إدارة أقاليم نيترلاند (Netherland) أكثر مركزية؟

(ج) كيف لمواطن اسكوتلندي وآخر من ويلز أن يُظهرا في وقتنا الحاضر رغبتهما في الانفصال؟.

والتفكير ملياً في دلالة الكلمات يتطلب وقتاً، إلا أن أغلب المصطلحات العامة التي يستخدمها المؤرخون تتكرر بشكل مستمر، وأن الصورة الذهنية لمناسبة ما سوف تلعب دوراً مهماً فيما بعد.

ودون هذا المجهود لن تكتسب الألفاظ أو الكلمات في كتابتك التاريخية الحياة.

9 ـ البحث الدقيق عن معاني الكلمات مهم للغاية في غرفة الامتحان. وها هو ذا سؤال يحتاج إلى التفكير فيه ملياً وبعناية قبل محاولة الإجابة عنه.

تأمل هذه العبارة: (كان همّ اليزابيت الأكبر تعزيز الدين وترسيخه).

فلفظة (الدين) كلمة شائعة الاستعمال، ولكن ما المقصود منها بالدقة في هذا النص؟

أيّ من المعاني المقترحة التالية تراه أقرب إلى المقصود؟

(أ) عقائد اليزابيت الخاصة المتعلقة بالله.

(ب) ما اقتضى أن يعلمه الإنجليز عقيدةً لهم حول الله.

(ج) أشكال من العبادة الواجبة في الكنائس الإنجليزية.

(د) الطرق التي تنظم الكنيسة الإنجليزية وتحكمها.

(هـ) الموقف الذي يتخذه راعي الكنيسة الإنجليزية الأكبر نحو البابا.

(و) التزام الإنجليز بأداء العبادة في كنائسهم الإنجليزية.

(ج) أسماء المجموعة:

الأسماء المستعملة لمجموعات من الناس قد تكون ذات ظلال مختلفة من المعاني، لذلك ينبغي لنا دراسة النص حتى نقرر ما هو المعنى المناسب في عبارة مستقلة، وإليك هذه الأمثلة:

- لم تكن بريطانيا مهيأة للحرب.
- أبقت بريطانيا على رفات الموتى.
- استبعدت بريطانيا من مسابقة كأس العالم.
- كانت ألمانيا أقدم عهداً برواتب المتقاعدين من بريطانيا.
- شرعت حكومة (اسكويث) في تقديم رواتب للمتقاعدين عام 1908 م.
- بعض الوزراء كانوا أعضاء في الحكومة، ولكن ليسوا أعضاء في المجلس.
- كان عضواً من الطبقة العاملة.
- مُنِحَت الطبقةُ الوسطى في الكونتات (Counties) أكثر الأصوات بسبب مشروع الإصلاح لسنة 1867 م.
- قرر عمال مناجم الفحم الإضراب في سنة 1974 م.

(10)

1- اشرح المعاني المختلفة لكلمة بريطانيا في الجمل السابقة.

2- من الذي قدّم بالفعل قرار رواتب المتقاعدين إلى مجلس العموم سنة 1908 م؟

3- ما هو المعنى الدقيق لـ(الطبقة الوسطى) في الجمل التي ذكرت قبل قليل؟ وما هي المعاني الأخرى لاسم المجموعة هذا؟

(11) هل اسم عمال مناجم الفحم يشير بشكل واضح إلى أنه:

(أ) يتضمن أولئك الناس الذين يعملون فوق سطح الأرض؟ أم يشير إلى أن:

(ب) القرار قد اتخذ بتصويت بدلاً من أن يتخذه زعماء الاتحاد؟

ونحن في هذا المقام نود أن نبين أن أسماء المجموعة ليست دقيقة، وأن الخطأ في تكوين معنى محمدد سيقود إلى اضطراب في التفكير.

(د) أسماء الفترات الزمنية:

- الأزمنة الكلاسيكية: Classical Times.
- العصور المظلمة: The Dark Ages.
- العصور الوسطى: The Middle Ages.
- الأزمنة الحديثة: Moderm Times.
- عصر العقل: The Age of Reason.
- عصر الثورات: The Age of Revolutions.

تلك الأسماء قد اشتقت لتسهل على المؤرخين وقرّائهم.

وليس ثمة جواب صحيح على: متى بدأت العصور الوسطى ومتى انتهت؟ وكل مؤرخ حرّ أن يحدد تواريخ للسنوات التي سيسميها بالأزمنة (الحديثة)، ولكنه سيسبب بعض الارتباك إذا تضمنت كلماته خطّأ فاصلاً واضحاً بين عصر وآخر. فسقوط القسطنطينية في عام 1453 م له أهمية كبيرة، إلّا أنه من الغباء القول بأن سنة 1452 م تقع في العصر الوسيط وأن سنة 1454 م تقع في العصر الحديث.

وهذا وليام الفاتح لم يستطع الإجابة على أي سؤال حول العصور الوسطى، أو حول النظام الإقطاعي لأنه لم يعرف المقصود من السؤال: ومع ذلك كانت له آراء قوية حول الطرق الحديثة لبناء القلاع.

(12) اقترح بعض الأسماء المناسبة للفترة التاريخية منذ عام 1945 م.

(هـ) أسماء الحركات:

- Renaissance : النهضة.
- Reformation : الإصلاح.

- Counter- Reformation : الإصلاح المعاكس، وهي حركة إصلاح كاثوليكية رومانية لحقت الحركة البروتستانتية.

- Industrial Revolution : الثورة الصناعية.

- French Revolution : الثورة الفرنسية.

- Romantic Movement in Literature : الحركة الرومانسية في الأدب.

- The Scramble For Africa : التنازع من أجل افريقيا.

كل تلك تراكيب نافعة وتفترض أن عدداً من الأحداث المعقّدة للغاية قد ترتبط ببعضها مكوّنة أشكالاً فكرية تستحق أسماء مميزة. بينما في أسماء الفترات الزمنية من المهم أن تتذكر أن تلك الأسماء هي من صنيع المؤرخين الذين كان همهم مساعدتنا في ذلك وثمة مجال لآراء مختلفة عديدة عن طبيعة الحركات، وعن أكثر سماتها مغزى ودلالة.

وهكذا، فإن المؤرخين سوف لن يتفقوا في زمن بداية الثورة الصناعية في إنجلترا، وما إذا كانت قد انتهت. فللحركات سمات مميِّزة، ولكن يصعب تعريفها بدقة.

(و) اللغة المجازية:

فيما يلي وصف لأليزابيث الأولى، فكيف يمكنك أن تخبر بمعناه الأدبي؟

(قد ولّدت الظروف فيها غلظة، ونوعاً من التعصب للرأي، ولم تكن لتلقى بالاً لصغائر الأمور بشكل خاص، وكانت حادة المزاج، ومرنة كالفولاذ).

كم استعارة تعرّفت عليها في النص؟

إن عدداً من المؤرخين مولعون بالاستعارة. كان هنري الثامن (الربّان الذي روّض العاصفة)، وسار (بسفينة البلاد إلى شاطىء السلامة) عبر (أمواجٍ غضوب) تولّدت نتيجة للخلاف مع البابا.

أكان ولنجتون (الدوق الحديدي)، وكان اللويد جورج (عرّاف ويلز)، وكانت عقائد لوثر قد (تبلورت إلى حد كبير بفعل الضغط السياسي).

فالاستعارات تتلائم مع القراءة الحيّة الفعالة، وإذا لم تستخدم. هكذا في الغالب فانها قد تفقد كلّ انتعاشها وطراوتها. وقد نتضايق عندما نقرأ أن سياسياً ما ظلت سيرته مستقيمة (كمسار السهم) أو أنه (ارتاد كل طريق)، (ولم يترك حجراً لم يقلبه) و(أصلح الوضع الراهن).

تلك الاستعارات أو المجازات المضنية يجب تجنبها في المقالات، ونحن إذا ردّدنا الجمل أو التعابير المجازية دون أن نفهم معانيها الأدبية فهماً كاملاً فذلك غش منا وإن كان قليلاً.

نعم، علينا أن نقدر المجاز، وأن نستعمله بكل الوسائل، ولكن فقط عندما نتأكد من المعاني التي يراد نقلها إلى الآخرين.

الخلاصة:

بيّنا في الفصل الأول والثاني أن قراءة التاريخ يجب أن تكون دائماً عمليةً جادّةً وفعّالة، وأن المحاولات يجب أن تُبْذَل من أجل تكوين صورة ذهنية من التعابير العامة، وحتى تنسجم مع أنواع متغيّرة من التعابير المستخدمة، ومع الوسائل التي قد تختبر بواسطتها، ولدراسة لغة المؤرخين المكثفة، ولمعرفة المعاني الدقيقة للمصطلحات الفنية، ولتطبيق المنهج على الناس الذين شاهدوا الواقعة، وعلى الأعمال الكامنة خلف الكلمات.

كما بيّنا فهم طبيعة أسماء الفترات والحركات فهماً كاملاً.

وكلما كانت الرغبةُ ملحّةً في القراءة المتصلة، كانت هنالك فترات يفقد فيها العقل تركيزه، فتكون بذلك ضرورة وضع برنامج أو نشاط يتمثل في الإجابة عن مجموعة من الأسئلة لتنشيط الذهن، وقد أشرنا إلى بعض الأسئلة التي قد تكون ذات نفع في الفصول السابقة.

وثمة وسيلة أخرى تساعد على فهم التاريخ يمكن الحصول عليها من دراسة الميول الفكرية أو عادات الأفكار (HABITS OF THOUGHT) وهي طرق التفكير الثابتة حول الحياة، كما أن هنالك سبيلاً آخر يعين على فهم التاريخ وهو اعتبار مقصود المؤرخين بـ(العلل أو الأسباب)، CAUSES.

العادات الفكرية والأسباب والتحامل

(1) العادات الفكرية:

14 ـ هب أن الجمل التالية تتعلق بالحياة في الوقت الحاضر، وبيّن:

(أ) هل كل جملة من الجمل المذكورة صحيحة؟
(ب) هل بُرْهِنَ على صحتها؟
(ج) هل هي مجرد افتراض، وجزء من عاداتك الفكرية الخاصة؟

(أ) الموت على الطرقات لا يمكن تجنبه.

(ب) في مجتمع سليم، سيرتفع مستوى المعيشة لكل الناس: سيكون هنالك عدد أكبر من السيارات، وعدد أكبر من آلات غسل الصحون، وعدد أكبر من أجهزة التليفزيون الملونة.

(ج) أفضل طريقة للوصول إلى فعّالية صناعة ما، هي نسبة الربح الذي يجنى من رأس المال المستثمر.

(د) لكل الناس الحق الكامل في التعليم بتكلفة اجتماعية.

(هـ) طلبة الجامعة أفضل من يحكم على كيفية وضع المناهج.

كل فئات الناس، في كل الأعمار، قد وصلوا إلى نتائج محددة حول مشاكل الحياة الأكثر أهمية، وقد قبلتها الجماعة أو الجمهور على أنها أمور لا يمكن السؤال عنها بشكل يدعو إلى الفائدة.

وصارت تلك النتائج ضروباً من العادات الفكرية أو (طرق التفكير الثابتة حول الحياة)، وهذه العادات استلزمت افتراضات يبدو بشكل جليّ أن الشكّ فيها أمر نادر.

فاليهود في زمن يسوع كانوا واثقين من أنهم شعب الله المختار، وأنَّ سبيل إرضائه هو مراعاتهم التامة لعدد من القوانين المتشابكة أو المعقّدة.

كما كان اليونانيون والفلكيون في القرون الوسطى يقولون بوجوب حركة

كل الأجسام السماوية في دوائر كاملة. وأن التجار في القرون الوسطى افترضوا أن كل السلع لها ثمن محدد لا يجب أن تتعداه. وأن الحكام في القرن السادس عشر لم يقبلوا إلا شكلاً واحداً من العبادة الدينية للضرورة الأمنية في البلاد. وأن معظم علماء الاقتصاد في القرن التاسع عشر اقتنعوا بأن أفضل وسيلة لمساعدة جماعة ما ليصيروا أثرياء هي السماح لكل عضو أن يحقق أكبر ربح ممكن لنفسه.

إنه من السهل أن نتأمل العادات الفكرية المستبعدة، ومن السهل أن نجدها غير منطقية ومتناقضة، إلا أننا لا نستطيع فهم التاريخ حتى ندرك أن ما نراه اليوم نمطاً أو أسلوباً قديماً وغير مقبول كان ذات يوم حقيقةً لازمة في عقول الناس، كأحد ادعا التي نحرص عليها اليوم تماماً.

وقد لا نستخدم نحن فكرة العقاب الأبدي، ولكن يجب علينا أن نتصور هلع لوثر كلما تفكر في الجحيم، وذلك لكي نقدر البهجة التي جعلته يقرر أن الإيمان وحده هو الذي سينقذه من الهلع.

وتتغير العادات الفكرية ببطء شديد، فبعدما قدّم كوبرنيكوس الأسباب القوية للاعتقاد بفكرة دوران الأرض في مدار حول الشمس، ظلّ هذا الرأي حتى انقضت مائة وخمسون سنة (150) على إعلانه ليصبح مقبولاً بشكل عام، وهذا أمر ملحوظ تماماً لأن أغلب الناس يشعرون بعدم الطمأنينة والحزن إذا تعرضت عاداتهم الفكرية لنوع من التحدي والطعن، وقد أشبعوا بفكرة أن عاداتهم الفكرية صحيحة، وأنهم يشعرون بالأسى والقلق كلما تصوروا أنهم سيفقدون منها شيئاً.

ولكي نجاهد من أجل فهم كامل لأناس عاشوا في الماضي، يجب علينا محاولة رؤية العالم كما كانوا يرونه، وأن نرمي بعاداتنا الفكرية جانباً.

ويجب أن نتذكر دائماً أننا نمتلك ميزة معرفة ما حدث في السنوات التي تلت الأحداث التي نقوم بدارستها، وأننا قد نعلم أن قرارات رجل دولة ما فشلت في تحقيق النتائج التي كان يصو إليها، وهذه ميزة لا تعرف إلا بعد انقضاء فترة زمنية على الحدث، فمحاولة نيڤيل شامبرلين Neville Chamberlain تهدئة هتلر لم تصرفه عن الحرب، وليس من حقنا وصفه بأنه غير كفءٍ لأن ما هو معروف

اليوم لم يكن معروفاً في سنة 1938 م، وكان شامبرلين يظن أن الابتعاد عن الحرب أمر ممكن.

كما يجب أن نحترس من الوجدان للتقليل من أسلوب التفكير الذي ينزع لمصلحة الآخرين التي نحبذها. فنحن نقبل دولة الرخاء الحديثة كعامل مهم في التخلص من الضيق والحرمان، إلا أن التعرف على جدارة الرأي القديم الذي علّق أكبر الأهمية على الاستقلال، وافترض أنه كان واجب كل عائلة أن تنشغل بحاجات جميع أفرادها أمر لازم.

(ب) الأسباب:

لعله أمر طبيعي لمؤرخ ما أن يأخذ في اعتباره كيفية تأثير انسان في آخر، وكيفية ارتباط الأحداث في مكان ما مع ما يجري في مكان آخر.

ونحن نبحث في كل دراساتنا عن العلاقة بين الأشياء والأفكار، ونحس بالنجاح عندما تخرج المادة في شكل معقول ومقبول.

لذلك يخبرنا المؤرخ عن الأسباب التي يراها قائمة وراء الثورة الفرنسية، وإذا لم نكن حكماء منتبهين فأننا سنحفظ تلك الأسباب عن ظهر قلب، دون أي تفكير آخر لغرض استعمالها في غرفة الامتحان.

ولكن عندما يخبر المؤرخ أن(أ) سبب (ب)، فأنه يعني أن هذا هو الحق في كل الاحتمالات.

والعالم يمكنه أن يعيد التجربة من حين إلى آخر، حتى يرى صدق الافتراض العملي أقرب ما يكون إلى الصواب، وأنه من الغباء في الواقع العلمي الحاضر التشكيك في ذلك. وهذا أمر لا يتأتى للمؤرخين، لأن التحقيق التاريخي لا يخضع للتجارب، ولا يمكن استرجاع الزمن، واكتشاف ما إذا كان هنري الثامن سينكر سلطة البابا لو أنجبت كاثرين أراجون طفلاً معافى. فيمكننا أن نختبر كل الشواهد المعروفة، ونقرر أن فقدان طفل، وإغراء أن بولين كانا مظهرين مهمين للموقف، إلا أنه لا يمكننا البرهان ـ متجاوزين كل الشكوك المعقولة ـ على أن تلك الاعتبارات، ووحدها فقط، جعلت هنري يفعل ما يفعل.

فالناس وعلاقاتهم الإنسانية في غاية التعقيد، إذ أن هنالك دوافع عديدة تلعب دوراً في أفعالهم، كما أن هنالك أسباباً محتملة عديدة لأي حدث ما.

والمؤرخ ينتقي الدوافع والأسباب التي تبدو له ذات تأثير كبير، وهو بذلك يعلم أنه يقدم رأياً محكماً جداً وليس الواقع عينه. كما يقوم المؤرخون الأخرون بدراسة نفس الشاهد، وقد يصلون إلى استنتاجات مختلفة، وذلك لأن كل واحد منهم يحكّم قواعده على أجزاء من الشاهد يراها أكثر أهمية، فقد يصر أحد المؤرخين على أن الأسباب هي دوافع سياسية كالرغبة في المسؤولية والسيطرة، بينما يراها آخر دوافع اقتصادية واجتماعية مثل: التوق إلى سيارات أكبر، ومنازل أكثر روعة وأكثر وجاهة، بينما يرى ثالث أن المحرك التاريخي الأول هم أولئك الناس بعقائدهم القوية، وإصرارهم على تطبيقها.

كتب J.M. Keynes : (في الوقت الحاضر أو في ما مضى، تظل الأفكار وحدها التي تشكل خطراً على الخير والشر، وليست المصالح الثابتة).

ويمكن أن تكشف وثائق جديدة، أو قد تتاح فرصة دراستها، لذلك يصبح التقويم الجديد للأسباب ضرورياً، وقد تمنح التجارب الجديدة المؤرخين فهماً أعمق للماضي، وهكذا، فإن مؤرخ عام 1970 م، والمهتم بطبيعة النشاطات الإرهابية في ايرلندة، قد يحسّ بأن المشاكل الايرلندية في زمن جلادستون أو اللويد جورج تبعث فيها الحياة الآن بشكل جديد.

لهذه الأسباب يجب أن نتوقع أن تقويم الدوافع والأسباب والنتائج قابلة للتغير من كتاب إلى آخر ومن زمن إلى آخر أكثر من العبارات المتعلقة بالحقائق الأساسية. لذلك ليس هنالك اتفاق عام، حتى هذه الساعة، حول أسباب حرب 1914 -1918 م.

(ج) التعرف على الأحكام المسبقة (التحامل):

تقرر لجنة القبول المشتركة أن أحد موضوعات امتحاناتها في التاريخ ذات المستوى المتقدم، أن تختبر قابلية أو قدرة الممتحنين على تقويم الآراء والتعرف على الأحكام المسبقة.

إن إمكانية معرفتنا للأحكام المسبقة في البحوث أكثر من معرفتنا لها بكثير في التواريخ العامة، بالرغم من أن بعضها يعطي تفسيرات كاثوليكية أو بروتستانتية منفتحة للتاريخ الأنجليزي أو الأوروبي.

وتظهر الآراء صريحة في كل الكتب، وعندما نتعرف عليها يمكننا اختبار قيمتها باعتبار الشاهد الذي يقويها. وعلى ضوء هذا يمكننا أن نقرر ما إذا كانت الآراء محتملة إلى حد بعيد، أو محتملة فقط، أو ممكنة، أو مشكوك فيها، أو بطلانها ظاهر، وإذا لم يكن ثمة شاهد على ذلك فيجب أن نتوقف عن إصدار الحكم، وأما إذا كان لضبط الكاتب وعلمه واستقامته اعتبار عندنا، فإننا حينئذ يمكننا أن نقرر بشكل معقول قبول الرأي السائد في الوقت الحاضر.

فالتحامل يظهر واضحاً بطبيعة الكلمات التي يستخدمها الكاتب، فوصف موقف بأنه (متهور أو أرعن) يعني أن الموقف مستهجن أو غير مقبول، وإذا وصف بأنه موقف (جريء) فهو مقبول عنده، والسياسي الذي يصفه أصحابه بأنه (قوي وصلب)، ينعته أعداؤه بأنه (شرس وعنيد).

وفي الكتابات المتحاملة ترى أن الشيوعيين (حمر)، وأن المحافظين (يستغلون) العمال، وزعماء العمال يسعون (لإرضاء) رغبات الاتحادات المهنية، وأن (البيروقراطية البورجوازية) الفاسدة قمعت (البروليتاريا).

فالكلمات التي بطبيعتها توضح أحاسيس الكاتب حول الموضوع تعرف غالباً بالمصطلحات (الملونة)، لأنها تلوّن أو تحرّف الرواية أو الخبر.

وستفقد دراسة التاريخ بعض جاذبيتها إذا تحمّل الكتاب العناء الكبير في كتمان مشاعرهم طول الوقت وسيكون الضرر قليلاً بفعل التحامل إذا ما عرفت مرة نزعاته.

فمن المفيد إذن للمضي قدماً أن نحدد ما هي أنواع النزعات أو الآراء المسبقة للكاتب التي يتوقع وجودها في الكتب أو الوثائق التي ندرسها.

ومن المهم أن نؤكد أن التحامل يمكن أن يحدث بالفعل دون اضطرار الكاتب لاستخدام عبارات باطلة أو مصطلحات ملوّنة.

والمؤرخون إذا لم يحرصوا أشد الحرص فقد ينتقون الشاهد الذي يؤيد الفكرة التي يتعاطفون معها بشكل قوي، فمثلاً: قد اعتقد كثير من المؤرخين أن التطور التدريجي للحكم بواسطة برلمان ديموقراطي كان أعظم إنجاز حققته بريطانيا، حتى أنهم أخذوا ينظرون لأي حوادث عرضية قللت من سلطة الملك وقوّت سلطة البرلمان على أنها خطوات في طريق التقدم، وقد بلغوا في تأكيدهم على ذلك درجة الإفراط.

وثمة دراسة مهمة على التحامل الخفي كتبها البروفيسور هـ. باترفيلد، تحت عنوان: تفسير حزب الهويج للتاريخ.

واختيار الشاهد ذو تأثير مهم لا سيّما أثناء عرض المادة التاريخية في برامج التليفزيون، فسيرة هنري فورد الذاتية في الوقت الحالي اعتمدت على كثير من المقاطع المأخوذة من أفلام جديدة وضعت عن حياته، ولأن الكثير من حياته لم يعرض فربما أعطى هذا الاختيار انطباعاً سيئاً.

فالبرامج الوثائقية التليفزيونية تبدو موثقة ودقيقة، إلا أنه قد تكون هنالك أحاسيس بأن المصور قد منع من التصوير، والأذن بأخذ الشريط قد يضمن فقط بشرط أن يكون للناس المعنيين حق حذف أي أجزاء من الفيلم التي يعتقدون أنها تشوّه سمعتهم، فمثلاً: ظهور صورة إخبارية لطالب ما لا تكفي أن تكون شاهداً أو دليلاً على ما قد حدث إذا لم تكن آلات التصوير موجودة في موقع الحدث.

(15) أي من الكلمات الآتية يعد مصطلحاً ملوّناً؟

. Nigger ـ Hooliganism ـ
. Healthy Vigour ـ Turncoat ـ
. Firmly based upon Principles ـ Crowd ـ
. Generous ـ Negro ـ
. Timid ـ Agitator ـ
. Resolute Opposition ـ Mob ـ
. Spendthrife ـ Strong Liquor ـ

. Cautious ـ Crusader ـ

. Idealistic ـ A Convert ـ

. Miserly ـ Thrifty ـ

. Wilful Confrontation ـ Starry- eyed ـ

. Alcoholic Drink ـ Doctrinaire ـ

(16) ما هي ضروب التحامل (النزعات) التي نتوقع وجودها فيما يلي:

(أ) تفسير كاثوليكي للتاريخ.

(ب) تفسير شيوعي للتاريخ.

(ج) وجهة نظر عامل منجم فحم حول الإضراب العام في سنة 1926 م.

(د) مذكرات رجل دولة.

(هـ) المقالات التي تحتوي على الطعن أو الجرح (مثل المقالات التي كتبت ضد دوق باكنجهام، أو ضد وارن هاستنج).

(و) موعظة تأبينية، أو خبر نعي.

(ز) شهادة تقدير كتبها مدير لتلميذه.

(17) علق على لغة المقالة الافتتاحية لصحيفة التايمز، والتي دافعت فيها عن العدد الصادر في 22 أبريل سنة 1834 م. كانت هنالك تظاهرة كبيرة في لندن يوم 21 أبريل تأييداً لستة من عمال المزارع في تولبودل TOLPUDDLE كانوا قد ادينوا وعوقبوا بالنفي لمدة سبع سنوات.

مرة أخرى، لقد وصفنا بأننا أعداء الطبقة العاملة، ولكن من قبل من؟ من قبل أولئك الأوغاد الذين احتالوا عليهم وافتوسوهم. فنحن أنزه من أن نتملق الأثرياء، وأي رجل نزيه سيتهمنا بتهجير الفقير وخذلانه والتخلي عنه... فمن نهض ووجه الروح الشعبية في انجلترا ضد الجريمة البشعة في باترلو سنة 1819 م؟، بل من فتح أعين الإنسان الفقير على الإشراك والمؤامرات التي يحكيها ضده أصدقاؤه المخادعون الزائفون؟ من غير صحيفة التايمز؟ ـ هدف لانتقام كل وغد، وتعسف كل مفتري ـ فنحن نترفع عن امتهان الكلمات في الرد على هذه المخلوقات فنزدريهم ونتحداهم.

عوامل مساعدة للتعليم

(1) وضع بطاقات ملاحظات:

وضع بطاقات للملاحظات تدريب ذو أهمية، ولكنه قد يستغرق وقتاً طويلاً. وعليه، من المهم أن نوضّح أي أنواع الملاحظات أكثر أهمية عند قراءة كتاب في تاريخ عام، أو بحث ما.

(أ) التواريخ العامة:

اقترحنا في الفصل الأول فقرة (ب) أخذ ورقتي ملاحظة منفصلتين أثناء قراءة موضوع في تاريخ عام للمرة الثانية.

فتذكر الورقة الأولى بالموضوعات التي تحتاج إلى تحقيق فيما بعد، بينما تعطى الورقة الثانية صورة ملخّصة لسلسة الأحداث. ومن خلال الورقة الثانية يمكننا أن نبين كيفية ارتباط الأحداث ببعضها، وذلك بوضع رسم بياني يوضّح هذا. والصفحة التالية مثال لمحاولة جادة نوعاً ما لربط مقدار من المعلومات عن حركة الإصلاح في انجلترا (من سنة 1529 م إلى 1559 م) ببعضها. وهذا مهم لبناء سلسلة من الأحداث، كما ستجد نفسك قادراً على فعل هذا بشكل مفيد للغاية، وذلك بإنشاء رسوم بيانية لموضوعك.

ويفضل بعض الناس أن يضعوا ملخصاً منهجياً وفق نسق معين لأجزاء من تاريخ عام، إلا أنه عمل مضن قد لا يستحق الوقت الذي ينفق فيه.

وثمة ملاحظات أخرى نافعة توضع على تاريخ عام في موضوع مقالة خاص، أو سؤال امتحان يستقر في الذهن.

والمعلومات الوثيقة الصلة بالموضوع قد تتناثر عبر صفحات الكتاب، والملاحظات المختصرة ستضمها إلى بعضها كأساس لممارسة مكتوبة.

(ب) البحوث أو الدراسات:

والطريقة نفسها صالحة إذا كنت تتعامل مع بحث أو دراسة، وذلك من خلال سؤال يطرح يستقر في الذهن.

وسوف لن تحتاج إلى وضع ملاحظات كثيرة على البحث إذا كان لديك الوقت الكافي لدراسته كله وعوضاً عن ذلك يمكنك أن تسأل نفسك الأسئلة التالية، واضعاً الإجابة في ملاحظات مختصرة:

1 ـ ما هي الرؤية الخاصة للأحداث التي يسعى المؤلف لإثباتها؟

2 ـ هل يبدو أن المؤلف يسعى لإعطاء دليل شامل، أو شاهد كاف؟ وهل كان موفقاً في اختيار ذلك؟

3 ـ هل بنيت مناقشاته على أساس الشاهد؟ وهل هي مقنعة؟.

4 ـ هل نجح فيما يسعى إليه؟

وهذه النصيحة بنيناها على أساس أنك تود أن تجعل قراءتك للتاريخ قراءة نقدية أكثر فأكثر، فتتطور مهارتك كأي طالب. كما يجب أن تصبح ملاحظاتك أكثر شخصية، وأن تختبر حكمك على الكتب التي قرأتها بدلاً من تلخيص محتوياتها.

(ب) فهرست البطاقات:

ستصادفك دائماً بعض الحقائق المهمة التي يصعب تذكرها، لأنها ليست جزءاً من قصة، ولا سلسلة من الأحداث المتعاقبة المرتبطة ببعضها. ولتثبيت تلك الحقائق في الذاكرة ينصح بتنقيح المعلومات وتهذيبها بشكل ثابت حتى يمكن استدعاؤها بسهولة، ونصيحتنا هي استخدام فهرست للبطاقات.

خذ عدداً من البطاقات الصغيرة أو قطعاً من الورق المقوى، واكتب على كل واحدة منها قسماً من المعلومات فمثلاً: إذا كنت ترى صعوبة أن تذكر أنه في سنة 1908 م، أصبح (اسكويث) رئيساً للوزراء، فاكتب على صدر البطاقة: (وزارة اسكويث الأولى)، وعلى ظهرها: (1908 م)، وعندما تلقى نظرة على البطاقة للمرة الثانية، يمكنك أن تختبر ذاكرتك.

ويجب أن تحفظ البطاقات في صندوق يحوي كذلك بطاقات أخرى، توضع عليها بطاقات صغيرة لاصقة مكتوب فيها: الأسبوع الأول، الأسبوع الثاني،

الأسبوع الثالث، الأسبوع الرابع، وهلمّ جرا. ومن ثم تشرع في وضع برنامج تنظيمي للتذكر.

ضع بطاقاتك الأولى في المكان المخصص للأسبوع الأول، وعند نهاية الأسبوع الأول اختبر معرفتك بكل شيء فيها. والبطاقة التي تحتوي على معلومات لا يمكن تذكرها تمضي إلى الأسبوع الثاني، وما تتأكد من معرفتها تمضي إلى الأسبوع الرابع، أو الذي يليه. والبطاقات التي تعرف معلوماتها ـ غالباً ـ تمضي إلى الأسبوع الثالث. وفي الأسبوع الثاني أضف بطاقات جديدة إلى البطاقات الموجودة في المكان المخصص لهذا الأسبوع من الصندوق وفي نهاية الأسبوع اختبر نفسك في كل البطاقات الموجودة، وضم هذه إلى ما تركته في الأسبوع الثالث، وهلمّ جرّا، وبالاستمرار على هذه الطريقة أسبوعاً فأسبوع ستجد أنك قد اكتسبت معلومات منقّحة ثابتة، وأن معظم وقتك قد أنفقته في الحقائق التي تراها أكثر جدوى.

(ج) التنقيح والتهذيب:

يقدم التنقيح طبيعية لك لاستيعاب ما قرأت، ولاكتشاف مقدار ما تمكنت من فهمه، وقبل أن تترك دراسة موضوع خاص عليك أن تأخذ ورقة وتدون فيها الإجابات المختصرة للأسئلة التالية:

ماذا حدث؟ أين؟ متى؟ لماذا؟ وما نتائج ذلك؟ وهذه ستريك مواطن الضعف أو الانقطاع في معرفتك.

وقبل أي امتحان مهم، فأنه من الأمور الجوهرية أن نأخذ فترة أساسية للتنقيح الخاص، وهذه الفترة ستكون ذات نفع كبير إذا استغلت للنشاط الذهني بدلاً من أن تكون فترة قراءة سلبية موهنة للعزيمة. ويمكن أن يقدم النشاط بصنع مجموعة جديدة من الملاحظات من نوع مختلف.

وأنت تعلم تماماً أن هنالك عدداً من الموضوعات قد أجري عليها بعض التنقيحات، وأنت في حاجة إلى آخر تنقيح لها قبل أيام الامتحان مباشرة.

والمجهود المبذول في إيجاد أفضل طريقة لضغط كميّة كبيرة من المعلومات

المهمة في فراغ صغير سيجعلك حذراً يقظاً أثناء أسابيع التنقيح، وهذا سيساعدك كذلك في الحصول على فهم أكمل لموضوعاتك الرئيسية.

5 دراسة الوثائق

لقد ازداد الاقتناع في السنوات الأخيرة بأنه يجب أن يتعرّف طلبة التاريخ على المصادر الأولية بمجرد أن يكونوا قادرين على فهمها. وهنالك فرصة سانحة لدراسة أعمال الإنسان في المدينة والريف، وذلك عن طريق القيام بزيارات إلى الكنائس والقلاع والمنازل والمتاحف، وتلك أكثر مصادر الشاهد أهمية، وهي خارجة عن موضوع هذا الكتاب الذي يجب أن يحصر في مناقشة بعض المسائل التي تتطلبها دراسة الوثائق. وقد نشر من الوثائق التي تستعملها المدارس والكليات عديد من الأجزاء الجديدة، وقد قامت لجان الامتحان بتقديم مقتطفات وثائقية في بحوثهم (العادية)، (والمتقدمة). فمثلاً: منذ عام 1965 م وضعت لجنة القبول المشتركة أسئلة للمستوى المتقدم على عدد من الوثائق التي نصح بدراستها، وعدد آخر من الأسئلة على مواد أوليّة أخرى التي يعتقد أن الممتحنين لم يلقوا عليها نظرة في السابق.

وتلك المقتطفات لم تؤخذ من الوثائق التي تستلزم معرفة متخصصة راقية من أجل تفسيرها، ولكن اكتفى بأبسط الأمثلة من المواد، مثل التي ذكرت في صفحة (2) فقرة (ب).

والوثائق المفروضة قد تضمنت أحوالاً مهمة، إلا أن المقتطفات غير المشاهدة تأتي عادة من اليوميات، والمذكرات والحكايات المعاصرة.

والهدف الصريح هو اختبار فهم المرشح لطبيعة الشاهد التاريخي، ولمعرفة قدرته على الاستنتاج من هذا الشاهد.

(أ) الاستدلالات:

استخلاص النتائج من الشاهد يستلزم العثور على المفاتيح (Clues) التي تؤدي إلى الاستنتاجات كما يفعل رجال التحري، على الأقل في الروايات. فشارلوك هولمز يقرر أن المجرم مجهول ولم يكن من مواطني لندن بسبب نطقه

لكلمة (EDGUWARE ROAD) ويعلل هولمز ذلك بأن:

1 ـ المجرم المجهول لا يعرف كيف يتهجأ كلمة (EDGWARE).

2 ـ كل مواطني لندن يعرفون هجاء لفظة (EDGWARE).

فكان استنتاجه مبنياً على افتراض قوي، وأنه من السهل أن نبيّن أن حجته لم تكن سليمة بالرغم من أن استنتاجه يبدو صحيحاً.

والمفاتيح التي ينتقيها المؤرخون تقود إلى نتائج محتملة فقط عندما تعلل بالاستدلال، فمثلاً: صورة السير فرنسيس درك المعلّقة في منزله تشير إلى أن عمره في سنة 1581 م، 42 سنة، ومن هذا يمكن إن يستدلّ على أنه ولد في سنة 1539 م، والاستدلال يمكن أن يعرض كما يلي:

1 ـ صورة درك تشير إلى أن عمره سنة 1581 م وقت أخذ الصورة له 42 عاماً.

2 ـ سوف لن يسمح درك للرسام بأن يخطىء في كتابة عمره.

3 ـ إذن، فقد ولد درك في سنة 1539 م.

إلا أن هذا الاستدلال قد قام على افتراض ما، فربما علم درك بخطأ الرسام إلاّ أنه لم يكلف نفسه عناء التصحيح. (وأخذت له صورة في عام 1594 م، وقد كتب عليها أن عمره 53 سنة، وأن ثمة شاهداً آخر يوحي بأنه ولد سنة 1544 م، أو بعد ذلك).

أي وقت يظهر الاستدلال، من المهم جداً أن نتساءل: أهو الاستدلال الوحيد والمعقول؟.

وشهادة الميلاد تؤخذ كدليل قطعي على تاريخ الميلاد، وحتى هذا يتوقف على أن والدي الطفل قد أعطيا تاريخاً دقيقاً لميلاده عند التسجيل. والقائمون على التسجيل يقومون بفحص التواريخ المعطاة بين الفينة والفينة، وهم يقبلونها على أنها صحيحة لاحتمال أن للوالدين بعض الدوافع لعدم إعطاء المعلومات الصحيحة.

وتحميل هذا على الدراسة التاريخية هو دلالة على أن كل الشواهد التاريخية في حاجة إلى تفسير أو تعليل.

ويعمل المؤرخ على جعل رسالته واضحة، وذلك باستخلاص الاستدلالات التي استقرّت فروضها، وإذا ما تبيّن فروضه فيما بعد فيلزمه القيام بتعديل نتائجه.

فمن الصراخ العنيف ضد أسوار تيودور، في المواعظ والكتب، يمكن الاستدلال على أن الأسوار كانت واسعة الانتشار، ومفجعة. إلا أن هذا الاستدلال قام على افتراض أن المواعظ والكتب قد أعطت صورة حقيقية لما حدث في أجزاء متعددة من البلاد، ولما تبيّن عظم الشك في ذلك الافتراض أعيدت كتابة قصة أسوار تيودور.

والصفحات التالية محاولة لاقتراح بعض الأسئلة الروتينية التي ستعيننا على اختبار الاستدلالات وفحصها، وعلى استعمال المادة بشكل جيّد.

(ب) تساؤلات توجّه لكل الوثائق:

هذه هي الأسئلة الأولى التي تسأل حول أي وثيقة، سواء أكانت شخصية، أو تتعلّق بالعمل، أو من النوع القصصي:

1 ـ من كتبها؟ وإذا لم تكن ممهورة بتوقيع، فهل هنالك أي دليل يعين القارىء على معرفة المؤلف؟

2 ـ متى كتبت؟ وإذا لم يذكر الزمان والمكان، فهل ثمة مفاتيح أو خيوط داخلية تعين على حل هذه المشكلة؟.

3 ـ ماذا كان الغرض منها؟

4 ـ لمن كتبت؟

فإذا كانت الوثيقة قصة من الأحداث، أو وصفاً لأناس، يجب أن نسأل بوضوح ما إذا كان الكاتب قد شاهد ما قصّه، أو كانت له معرفة شخصية بالناس الذين وصفهم، وفضلاً عن ذلك، فإننا نود معرفة ما إذا كان شاهد

عيان حقيقي، ومراقباً للأحداث.

وهذه الموضوعات ستناقش فيما بعد في شيء من التفصيل.

فعلى أية حال، نحن هنا ننظر في دور الوثيقة، ومهمتنا التالية اختبار استنتاجاتنا بالرجوع إلى كل الشواهد الأخرى التي نجدها ذات صلة وثيقة بالموضوع.

(ج) الشاهد الداخلي:

إنه من الممكن ـ غالباً ـ أن نطرح بعض الأسئلة حول وثيقة ما، وذلك بتعليل أو تفسير المفاتيح الكامنة فيها، ويسمى المؤرخون هذه المفاتيح (CLUES) الشاهد الداخلي (INTERNAL EVIDENCE) وقد ترسخ بعيداً عن كل الشكوك المعقولة أن (أعمال الرسل) ACTS OF THE APOSTLES، قد قام بتأليفها نفس الشخص الذي قام بتأليف أحد الأناجيل، وهو (لوقا)، وهذا الاستنتاج قائم على أن الكلمات التي بدأ بها أعمال الرسل: (الكلام الأول أنشأته ياثا وفيلوس عن جميع ما ابتدأ يسوع يفعله...) تتفق مع فاتحة إنجيل لوقا: (.. أكتب على التوالي أيها العزيز ثاوفيلوس لتعرف صحة..) وعلى حقيقة أن كلاً الكتابين أظهرا اهتماماً خاصاً بمواعظ المسيحية للكفار والملاحدة، ونتيجة للتعرف على عبارات محددة، وكلمات نادرة ظهرت في كلا الكتابين، إلا أنه من الصعب تحقيق ذلك في الأجزاء الأخرى من كتاب العهد الجديد.

18 ـ هذان مقطعان من خطب مسجلة. فما هو الشاهد الداخلي الذي يمكنك من معرفة مكانهما وزمانهما؟

1 ـ «أذكركم يا حضرات اللوردات بأنكم في سنة 1907 م قد رفضتم أن تجيزوا شكوى تقويم أرض باسكوتلندا قدمت لكم. وفي السنة التالية قدمت إليكم شكوى مماثلة مرة أخرى... وستلاحظون يا حضرات اللوردات في كلتا المناسبتين أن مسألة تقويم الأرض قد عرضت عليكم كموضوع تتعاملون معه كلياً وبشكل كاف، وقد تبين لي أنه موضوع جديد لم تسمعوا به من قبل.

وبعدما حدث ذلك، فاعلموا الآن أنه بسبب درجة الحرص قد ربطت

نفس المجموعة بهذه الشكوى المالية، وإنكم ستحرمون من الفرصة التي قد واتتكم - باعتراف عام - في سنة 1907 و1908 م».

(ب) «كان من المحترم قطعاً، ذات مرة، أن تدفع المرتبات لأعضاء البرلمان الذين حددت مرتباتهم. ومثل جميع المستويات أو الطبقات التي تدفع لها أجرة سيبحثون عن وسيلة للرفع من تلك الأجور عندما تتاح لهم الفرصة... فالحكومة... ليست مطمئنة هذا الأسبوع... ففضلاً عن تحطيم السلطة التشريعية للمجلس الثاني للبرلمان، يقترحون الآن تحطيم السلطة الأخلاقية لمجلس العموم أيضاً. ولأنني أحب مجلس العموم، ولأنني فخور به، أتمنى من الأصدقاء الشرفاء أن يدلوا بأصواتهم في هذا الجانب لإنقاذه إذا أمكن من هذا العبث والخزي..».

وإذا لم يكن هنالك دليل يكفي لمعرفة تاريخ الوثيقة المحتمل، فإن الخبراء يمكنهم في الغالب أن يحصروا حدود تاريخها، وذلك بتحليل الورق والمداد، وبدراسة شكل الخط وملامح الأسلوب الخاصة، وهذه الأمور تعد من التحقيقات الفنيّة الراقية.

وحتى إذا كانت الوثيقة مؤرخة وموقعة فإن ذلك لا يكفي لقبولها دون تفكير، فقد يعطي الكاتب تاريخاً خاطئاً بشكل متعمد، أو قد يرتكب خطأً ظاهراً. وفضلاً عن ذلك، فإنه إذا كان قد كتب قبل سنة 1752 م، فتواريخه سوف تختلف عن تواريخنا، لأن تقويمنا التاريخي قد تغير بعد ذلك، فما يدعيه أنه أول يونيه فهو عندنا الثاني عشر من يونيه، وأن بداية العام عنده تبتدىء في 25 مارس، لذلك فإن 25 مارس من عام 1701 م يأتي بعد 24 مارس من عام 1700.

19 - تظهر أهمية دقة التاريخ البالغة عندما يكتب أحدهم وصيته. فالوصايا تزيّف أحياناً لمصلحة ذوي الضمائر الفاسدة. فإذا قرر شخص ما أن يكتب وصية اليوم دون مساعدة كاتب عقود أو محام، فمن الممكن أن يشتري نموذجاً مطبوعاً من قرطاسيّ، يثبت في أسفله رقم شيفرة أو مفتاح CODE NUMBER، وهذا الرقم أو المفتاح يمكّن الذي قام بطبع هذا النموذج من معرفة تاريخ طباعته، وتاريخ عرضه في أماكن البيع. ويرفض أن يفك رموز هذا الرقم إذا سأله جماعة

من الناس ذلك، فتظل المعلومات سرية للغاية.

(أ) إذا لم يكن الرقم أو المفتاح سرياً، فما الشاهد الذي يعطيه عن تاريخ كتابة الوصية؟

(ب) ما هو الدور الذي تلعبه السرية أو الكتمان ضد تزييف الوصايا؟

وكذلك يجب التعامل مع التوقيعات بعناية، بعيداً عن حقيقة إمكانية تزويرها.

وحقيقته أن رجل دولة وقّع رسالة ما ليست برهاناً على أنه قام بذلك، حتى لو كان ذلك بخط يده.

إذ الغالب أنه يمنح موافقته العامة على المحتويات، وقد يكون منشغلاً فلا يقوم بأي تعديلات مفصلّة. وهذا ينطبق كليةً على رسائل الملوك والملكات. وما لم يكن هنالك دليل واضح على عكس ذلك فإن تلك الرسائل هي من صميم عمل أمناء السرّ الخصوصيين.